ABES13

**أحاديث الأذكار والأدعية 19 - شروط الدعاء وآدابه**

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإنَّ من الضوابطِ المهمَّةِ للدعاء: أن يحذر المسلمُ أشدَّ الحَذر من الاعتداء فيه، والاعتداءُ: هو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، يقول الله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ}[الأعراف:55]، فأرشد تبارك وتعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ عبادَه إلى دعائه الذي هو صلاحُ دينهم ودنياهم وأخراهم، ثمَّ نهاهم سبحانه في هذا السياق عن الاعتداء بإخباره أنَّه لا يحبُّ المعتدين، فدلَّ ذلك على أنَّ الاعتداء مكروهٌ له مسخوطٌ عنده، لا يُحبُّ فاعلَه، ومن لا يحبُّه الله فأيُّ خيرٍ ينال! وأي فضلٍ يُؤمِّل!.

ثمَّ إنَّ النهيَ عن الاعتداء في الآية وإن كان جاء عاماً يشملُ كلَّ نوع من الاعتداء، إلاَّ أنَّه لمجيئِه عقِب الأمر بالدعاء يدلُّ دلالةً خاصة على المنع من الاعتداءِ في الدعاء والتحذير منه، وبيانِ أنَّ الدعاءَ المشتملَ على الاعتداء لا يحبُّه الله من عباده ولا يرضاه لهم؛ ولهذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {إنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ} ، قال: «في الدعاء ولا في غيره» ، وعن قتادة : في معنى الآية قال: «اعلموا أنَّ في بعض الدعاء اعتداء؛ فاجتنبوا العدوان والاعتداء إن استطعتم ولا قوة إلاَّ بالله» ، وعن الربيع: في معنى الآية قال: «إيَّاك أن تسأل ربَّك أمراً قد نُهيتَ عنه أو ما ينبغي لك».

وقد جاء عن النبي ما يدلُّ على أنَّ من الأمَّة مَن سيقع في الاعتداء في الدعاء، وهو عندما أخبر بذلك أخبر به محذِّراً منه ناهيًا عنه مبينًا لخطره، وهذا من تَمام وكمال نصحه لأمَّته صلوات الله وسلامه عليه، وهو أيضاً من علامات نُبوَّته .

روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرُهم عن عبد الله بن مغفل : أنَّه سمع ابنه يقول: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك القصرَ الأبيض عن يمين الجنَّة إذا دخلتها»، فقال: أي بُنيَّ سلِ الله الجنَّة وتعوَّذ بالله من النار، فإنِّي سمعتُ النبيَّ يقول: ((سيكون في هذه الأمة قومٌ يعتدون في الدعاء والطُهور)).

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص أنَّه سمع ابناً له يدعو يقول: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة ونعيمَها وإستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها»، فقال: لقد سألتَ اللهَ خيراً كثيراً، وتعوَّذتَ بالله من شرٍّ كثير، وإنِّي سمعتُ رسول الله يقول: ((إنَّه سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء، وقرأ هذه الآية: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ})) ، وإنَّ بحسبِك أن تقول: اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل .

فأخبر صلوات الله وسلامه عليه أنَّه سيكون قومٌ من أمته يعتدون في الدعاء؛ ناهياً عن ذلك، وليكون المسلمون في حَيطةٍ وحَذرٍ من الوقوع في شيء منه، ولا سبيل إلى السلامةِ من ذلك إلاَّ بلزوم السنة واقتفاء آثار الرسول ،كما قال عليه الصلاة والسلام: ((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)).

إنَّ الاعتداءَ في الدعاء بابٌ واسعٌ؛ إذ هو -كما تقدَّم تعريفُه- تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وعلى هذا فكلُّ مخالفةٍ للسنة ومفارقة للهدي النبوي الكريم في الدعاء يُعدُّ اعتداءً، ومن المعلوم أنَّ المخالفات متنوِّعةٌ وكثيرةٌ لا يجمعها نوعٌ واحد، ثمَّ هي أيضاً متفاوتةٌ في خطورتها؛ فمِن الاعتداءِ ما قد يبلغ حدَّ الكفر، ومنه ما هو دون ذلك، فمَن اعتدى في دعائه بأن دعا غيرَ الله أو سأله أو طلب منه كشف ضرِّه أو جلب نفعه أو شفاءَ مرضه أو نحو ذلك، فقد وقع في أعظمِ أنواع الاعتداء في الدعاء وأشدِّها خطرا، ولهذا قال الله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}[الأحقاف:5].

وحاصلُ كلام المفسرين في معنى هذه الآية أنَّ الله تعالى حكَم بأنَّه لا أضلُّ مِمَّن يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة، ومعنى الاستفهام في الآية: إنكارُ أن يكون في الضُلاَّل كلِّهم أبلغُ ضلالاً مِمَّن عبَد غيرَ الله ودعاه، حيث يترك دعاء السميعِ المجيبِ القدير، ويدعو مِن دونه الضعيفَ العاجزَ الذي لا قدرة له على الاستجابة، كما قال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}[الرعد:14]، فهذا أخطرُ أنواع الاعتداء في الدعاء وأشدُّها ضرراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :: «فهؤلاء أعظمُ المعتدين عدواناً، فإنَّ أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لابدَّ أن يكون داخلاً في قوله تعالى: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ}».

وأيُّ اعتداءٍ أعظم وأشدُّ من هذا! أن يَصرفَ العبدُ حقَّ الله الخالص -الذي لا يجوز أن يُصرف لأحدٍ سواه- إلى مخلوقٍ لا يَملكُ لنفسه ضرًّا ولا رَشداً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن أن يَملك شيئاً من ذلك لغيره، قال الله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا}[الفرقان:3]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[الأعراف:194]، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ}[سبأ:22].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :: «وقوله تعالى {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ} قيل: المراد إنَّه لا يحبُّ المعتدين في الدعاء، كالذي يَسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك، وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن مغفَّل أنَّه سمع ابنَه يقول: "اللَّهمَّ إنِّي أسألك القصرَ الأبيض عن يمين الجنَّة إذا دخلتها" فقال: يا بُنيَّ سلِ الله الجنَّة وتعوَّذ به من النار، فإنِّي سمعتُ رسول الله يقول: ((سيكون في هذه الأمة قومٌ يعتدون في الطُهور والدعاء)) ».

ثمَّ قال :: «وإن كان الاعتداء مراداً بها فهو من جملة المراد، والله لا يحب المعتدين في كلِّ شيء دعاءً كان أو غيرَه، كما قال الله تعالى: {وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ}» اهـ.

**وعلى هذا فإنَّ الآيةَ الكريمة تكون دالةً على أمرين اثنين:**

**أحدهما**: محبوبٌ إلى الله مرغَّبٌ فيه، وهو دعاءُ الله تضرُّعاً وخُفيةً.

والثاني: مكروهٌ له مسخوطٌ عنده، مُحذَّرٌ منه أشدَّ التحذير، وهو الاعتداء.

فأمر بِما يُحبُّه وندب إليه ورغَّب فيه، وحذَّر مما يُبغضُه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو إخبارُه سبحانه بأنَّه لا يحبُّ فاعلَه، ومَن لا يحبُّه الله فأيُّ خيرٍ ينال! وأيُّ فضلٍ يؤمل!.

ومن هنا كان متأكَّداً على كلِّ مسلم أن يكون في حذرٍ بالغٍ وحَيْطةِ كاملة من الاعتداء في الدعاء بتجاوز حدِّ الشريعة فيه، والبعدِ عن ضوابِطه وأصولِه المعلومة. والاعتداء: مشتقٌّ من العدوان، وهو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصر عليه من حدود الشريعة وضوابِطها المعلومة، كما قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا}[البقرة:229]؛ أي أنَّ ما فصَّله الله سبحانه لعباده من الشرائع والأحكام يجب ملازمتُه والوقوفُ عنده وعدمُ تعدِّيه، {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[الطلاق:1]، وأيُّ ظلمٍ للنفس أنكى وأشد من تجاوز الحدود الشرعية وضوابطها المهمَّة المتَّبَعة.

ثمَّ كيف يُؤَمِّل المرء الإجابة ويَطمع في القبول وهو متجاوزٌ في دعائه ضوابطَ الشريعة ومتعدٍ حدودَها المقرَّرة، فالدعاءُ المعتدَى فيه لا يحبُّه الله ولا يرضاه، فكيف يؤمل صاحبُه أن يُستجاب منه ويُقبل.

**ومِن الاعتداء في الدعاء**: سؤالُ الله ما لا يجوز أن يُسأَلَه؛ من المعونة مثلا على فعلِ المُحرَّمات وارتكاب الذنوب وغشيان المعاصي، كأن يسأل الله أن يعينه على سفر يريد به الإثمَ والباطلَ، أو أن يُيسِّرَ له طريقاً أراد به المعصية والعدوان، ونحو ذلك .

**ومن الاعتداء في الدعاء**: أن يسألَ الله ما عُلم من حكمته سبحانه أنَّه لا يفعله، كأن يسأل الله تخليده إلى يوم القيامة، أو أن يسأله أن يرفع عنه لوازمَ البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء، أو أن يسأل الله إطلاعَه على غَيبِه وما استأثر سبحانه بعلمه، أو أن يسأل الله أن يَهبَ له ولداً من غير زوجة، ونحو ذلك مِمَّا سؤالُه اعتداءٌ لا يحبُّه الله ولا يحب فاعله.

**ومن الاعتداء في الدعاء**: سؤالُ الله ما لا يليق بالسائل من المنازل والدرجات، كأن يسأل الله منازلَ الأنبياء والمرسَلين، أو يكون ملَكاً ، أو نحو ذلك.

**وكذلك من الاعتداء في الدُّعاء**: أن يدعوَ اللهَ غير متضرِّع، بل يدعو دعاءً يكون فيه كالمستغنِي المدلِي على ربِّه.

**ومن الاعتداء** : أن يَعبدَه بِما لَم يشرع، ويُثنِي عليه بِما لَم يُثنِ به على نفسِه ولا أذِنَ فيه.

**ومن الاعتداء في الدعاء**: الدعاءُ على المؤمنين باللَّعنة والخِزي والهوان، قال بعضُ السلف في معنى المعتدين في الآية المتقدِّمة: «هم الذي يدعون على المؤمنين فيما لا يحلُّ، فيقولون: اللَّهمَّ اخزِهم، اللَّهمَّ الْعَنْهم، ونحو ذلك» ، وجاء عن سعيد بن جُبير في معنى الآية قال: «لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشَّرّ؛ اللَّهمَّ اخْزِه والْعَنه ونحو ذلك، فإنَّ ذلك عدوان».

**ومن الاعتداء** **في الدعاء** : رفع الصوت به رفعاً يُخلُّ بالأدب، قال عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج: «إنَّ من الدعاء اعتداءً؛ يكره رفعُ الصوت والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة».

وعموماً فإنَّ الإنسانَ بحسب مفارقته للسنة وابتعاده عن هدي نبينا محمد صلواتُ الله وسلامه عليه يكون نصيبُه من الاعتداء والتجاوز ، ومَن لزِمَ هديَ النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وتقيَّد بسنَّته أمِن من الزَلل، وحُفظ بإذن الله من الخطل.

وأسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه سميعٌ قريبٌ مجيب .

وصلى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .